كتب الاختيارات في عصر التدوين

مقبول علي النعمة
جامعة الموصل / كلية الآداب

تاريخ تسليم البحث : 2006/4/2 ؛ تاريخ قبول النشر : 2006/9/20

ملخص البحث :

يُظهر عنوان (الاختيار في عصر التدوين) أمورا متعددة , فـ (الاختيار) كما (عصر التدوين) مفهومان اصطلاحيان, وهما على وضوحهما بحاجة إلى تحديد دقيق ليترسخ فهمها , ومن ثم يكتسب الفهم علميّة في إطاره المنهجي الأكاديمي, وهو مما لم تراعه السطور القادمة, حيث إنها اعتمدت على ما هو مفهوم وشائع ومتداول بين الدارسين, وهي بهذا لاتقلّل من شان التحديد والتدقيق؛ إنما تحتفظ بهذه الأهمية إلى دراسة أخرى مقبلة .

الأمر الأخر هو أن هذا العنوان يستدعي الخوض في كل الأواصر المتولدة عن اقتراب (الاختيار) من (عصر التدوين) , لكن ما سنقرؤه من سطور ركّز على ما يهم مقتضى حال هذه الدراسة , ففي هذه الدراسة إضاءة لبداية الاختيارات ولتطورها , وفيها الحديث عن المديات التي وصلت إليها , ثم حديث عن دور الاختيارات في ساحة النقد الأدبي , وفاعلية دور الاختيار في عصر التدوين .

ونأمل أن تتبع هذه الدراسة دراساتٌ أخرى تغني ما صرفنا النظر عنه هنا .

ومن الله التوفيق ....

Selection in Writing Era

Maqbool AL-Ni’ma
University of Mosul - College of Arts

Abstract:

The title, "Selection in Writing Era", shows many issues. Selection, as writing, is considered a term. Both of them require a precise determination to be understood firmly. Then, comprehension acquires knowledge in its academic methodical framework, the matter that next lines do not take care of. They have depended on what it is understood

by, common and current among scholars. By that, they do not disparage determination and precision; yet they keep such importance for other future studies. Also, this title requires dealing with all bonds generated from closing the selection to writing era. The lines that we'll read concentrate upon needs of this study. This study reveals to the rising and developing of selections. It talks about extents into which they got. Also, it talks about role of selections in the field of literature criticism as well as activity of role of selection in writing era.

We hope this study be followed by other ones that deal with what we dismissed here.

منطلقات ومديات:

يطول بنا المقام إن أردنا أن نهتدي – توثيقاً – إلى البدايات الأولى للاختيارات، رغم أن المعلقات ترد دائماً على أنها أول محاولة للاختيار من أجود أشعار العرب[1]. والمعلقات ذاتها بحاجة إلى تدقيق أكثر لحسم أمرها: هل تم اختيارها في الجاهلية أم في عصر التدوين؟[2]وإذا ما غيّبنا مسألة حقيقة تعليقها (وهل جاءت من التعليق على أستار الكعبة أم من الشئ النفيس أم من غير ذلك)[3] لأنها لا تخدم قضيتنا التي نحن بصددها ؛ فإننا لن نصل في قضية زمن اختيار المعلقات إلى حسمٍ مريحٍ ، بدليلٍ قاطعٍ وحجةٍ دامغة ، ذلك لأن أدلة الفريقين (القائل باختيارها في الجاهلية والقائل باختيارها في عصر التدوين) تكاد تكون ترجيحية[4] فكل فريق يرجح أدلة على الأخرى ... ولا ينكر البحث هنا أنه يرجح كتابتها في عصر التدوين وذلك لأسباب منها :

- لا يوجد دليل قطعي الثبوت بتعليقها .

(1) ينظر : مصادر الدراسات الأدبية واللغوية ، داود إبراهيم غطاشة وعبد القادر أبو شريفة ، دار القدس ، عمان ، 1989 ، ص16 .

(2) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط2 ، 1978 ، ص : 74.

(3) ينظر :المكتبة، سامي مكي العاني وعبد الوهاب العدواني، نشر وزارة التعليم العالي، بغداد ، 1979، ص : 229 . وينظر:المكونات الأولى للثقافة العربية، عز الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافية، بغداد ، ط2 ، 1986 ، ص : 50 .

(4) ينظر : تاريخ النقد الأدبي ، ص : 74 .

- لا يوجد من الأدلة مما يطمئن إليه الباحث من أن العرب احتفوا بالمعلقات حفاوة عظيمة ، ولا من دليل كذلك يفيد بأن الشعراء دأبوا جهدهم لتعليق أشعارهم .
- لم نجد محاولات متعاقبة لاختيار معلقات أخرى، هذا إذا وضعنا نصب أعيننا أهمية الشعر عند العرب وعلّو شأنه وخطورة مكانته، وإذا ما نظرنا كذلك إلى بعض الأخبار التي تشير إلى ثورة بعض الشعراء إن سمع تفضيلاً لشاعر أو شاعرة عليه.
- في مقابل ما سبق ، فإننا نجد تطوراً طبيعياً للاختيارات إذا ما بدأنا بالمعلقات على أنها بداية الاختيار وأن ما تبعها من اختيارات (المفضليات ، الأصمعيات ، جمهرة أشعار العرب ، حماسة أبي تمام ، بقية الحماسات ... الخ) كانت تطوراً طبيعياً لها ، تاريخياً وفنياً على النحو الذي سنبينه لاحقاً .
- إن اهتمام العلماء العرب بالمعلقات بدأ في عصر بعيد عن العصر الجاهلي، وقريب إلى حدٍّ ما من عصر التدوين أو زمن اختيار المعلقات. فإذا ما تابعنا عدداً من المؤرخين في أن راوية الكوفة حماد الراوية المتوفى (155 هـ) هو أول من جمع هذه القصائد[1]؛ لرأينا أن اهتمام العلماء جاء بعد حماد الراوية ؛ فأول من كانت له آراء مثيرة حول المعلقات هو أبو زيد القرشي (المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري حسب رأي بروكلمان)[2]* وقد جاء بعده من المشهورين ابن كيسان (320 هـ) وابو بكر بن الأنباري (328 هـ) والنحاس (338 هـ) وأبو علي القالي (356 هـ) والزوزني (486 هـ) وعاصم بن أيوب (494 هـ) والتبريزي (502 هـ) وأبو سعيد الضرير وصولاً إلى الشنقيطي (1913)[3] وعلى هذا النحو يمكن أن نطمئن إلى ترجيحنا في أن اختيار المعلقات نُفّذ في عصر التدوين ، وأن المعلقات المختارة لاقت اهتماماً طبيعياً من علماء العرب

---

(1) ينظر : نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، الأنباري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ط1 ، 1967 ، ص : 43 .

(2) تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة : عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، ج75/1 .

(*) يشير البحث هنا إلى أن زمناً ليس بالقصير يفصل بين الإشارة إلى المعلقات وبين بداية الاهتمام بها ، وهذا الزمن يقرب من القرن ، على أن البحث ينوه إلى مسألتين:
الأولى : أنه أشار هنا إلى الاهتمام بالمعلقات من حيث التناول المنهجي (كتاب مؤلف اختص بالمعلقات) ، الثانية : أن البحث يرى أنه يجب التحقيق في الزمن الذي أعقب حماد الراوية إلى أن نصل إلى أول شرح لها، وأن هذا التحقيق يجب أن يكون دقيقاً بُغية الوصول إلى حقيقة المعلقات ودورها في النقد العربي .

(3) ينظر : تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، ترجمة : محمود فهمي حجازي ، نشرته : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، 1983 ، مجلد 2/ج80/1 .

وفي العتبة الثانية تبدو لنا المفضليات شامخة بين كتب الاختيارات بل وبين كتب الشعر العربي بعامة ، وصاحبها (المفضل الضبي) لا يبعد زمناً عن حماد الراوية (توفي المفضل الضبي 164 هـ) لكنه يبتعد عنه كثيراً في ثقة الرواية وفي الحصافة وفي بعد النظر في المسؤولية الأدبية والإنسانية . والمفضليات كتابٌ ثقة يرجع إليه من أراد الدقة والإتقان في دراسة الشعر العربي القديم من الدارسين ، فضلاً عن كونه كتاب اختيارات لها من الفضائل ما لكتب الاختيارات من الفضائل .

وسرعان ما اكتسبت المفضليات أهمية واضحةً في الأوساط الأدبية ، فقد تلقاها العلماء بالقبول[1]، وقد تناولها عدد من العلماء بالشرح والتبيين[2]وقد لاقت الشروح ذاتها قبولاً ورواجاً محموداً[3].

ومع كل هذا الفضل الذي لاقته المفضليات نرى أن تاريخ الأدب لم يحسم لنا الأمر في أن فضل الاختيار كان للمفضل الضبي ... فروايات تقول إن القصائد المختارة في المفضليات كانت للمفضل الضبي ، وأنها كانت معدة من قبله لتعليم الخليفة المهدي ابن الخليفة المنصور[4]. وأخرى تقول إنها من مختارات إبراهيم بن عبد الله الذي كان مطلوباً لأحد الخلفاء العباسيين فآواه المفضل عنده في بيته فاطّلع إبراهيم على كتب المفضل ، فعلّم على قصائد اختارها ، ثم قام المفضل بنشر هذه القصائد[5]... ولا يُخفي البحث اطمئنانه لترجيح الرواية الأولى ،حيث إنها وردت على نحو واضح في الفهرست لابن النديم ، والمزهر للسيوطي[6]وكتب أخرى لا يعقل اجتماعها على خبر مشكوك فيه ، في حين أن الرواية التي تقول بأن إبراهيم هو الذي اختار هذه القصائد هي في كتاب مقاتل الطالبين للأصفهاني مما يثير الشك في قبولها لوجود هذا التفرد عند الأصفهاني الذي عرف عنه تسامحه وتهاونه في رواية الأخبار.

---

(1) ينظر : مصادر الدراسات الأدبية واللغوية ، ص : 41 .

(2) ينظر : تاريخ التراث العربي ، مجلد 2/ج87/1 .

(3) ينظر : مصادر الدراسات الأدبية واللغوية ، ص : 41 .

(4) ينظر : ديوان المفضليات ، المفضل الضبي ، بشرح أبي محمد الأنباري ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، 1920 ، ص : 1 . وينظر : الفهرست ، محمد بن إسحق النديم ، دار المعرفة ، بيروت ، 1978 ، ص : 102 .

(5) ينظر : تاريخ التراث العربي ، مجلد 2/ج85/1 .

(6) ينظر : المزهر في علوم اللغة وأنواعها ،جلال الدين السيوطي ، تحقيق : فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية ،بيروت، ط1، ج273/2 .

إن مسألة ترجيح نسبة اختيارات المفضليات إلى المفضل الضبي أو إلى إبراهيم بن عبد الله لا تقدح في قيمة المفضليات بوصفها مجموعة من قصائد من الشعر العربي ، مختارة من أجوده ، موصوفة بثقة الراوية ودقة الاختيار ، بل إن هذه المسألة لم تثر جدلاً واسعاً، وكأن من جاء بعد المفضل واهتم بالمفضليات قد حزم أمره في أن هذه الاختيارات هي للمفضل الضبي .

ولا يكاد يبتعد العهد كثيراً بالمفضليات حتى نرى ولادةً لاختيارات أخرى هي الأصمعيات ، التي قام باختيارها وجمعها الأصمعي (216 هـ) ... وإن كان الدارسون يلمحون شبهاً للأصمعيات بالمفضليات؛غير أن الأصمعيات كان لها من التفرد واستقلال المنهج ما جعلها عرضة للنقد بخلاف قرينتها المفضليات ،وبعضهم علّم على مناحي قصور الأصمعيات ورآها في قلة ما فيها من الغريب وفي اختصار روايتها ؛الأمر الذي جعلها في منأى من أيدي الشراح والدارسين[1].

خطوة أخرى تالية يقوم بها أبو الخطاب القرشي حينما اختار مجموعة من عيون الشعر العربي ، الجاهلي والإسلامي ، وضمها مع مقدمة نقدية كتابه الذي أسماه جمهرة أشعار العرب ... ولا يوجد هنا خلاف بين الدارسين في نسبة الكتاب أو الاختيار للقرشي لكن الخلاف كان حول تاريخ

ولادة القرشي نفسه[2]...والكتاب تطورٌ نوعي وفني للاختيارات[3]على النحو الذي سنوضحه لاحقاً .

ولم تكد التطورات التي اعتمدها القرشي في اختياراته تشيع بين متلقيها حتى نرى نسقاً متميزاً من الاختيارات يتوالى بالظهور والنمو والانتشار ، فمن حماسة أبي تمام (231 هـ) إلى حماسة تلميذه البحتري (284 هـ) إلى حماسة ابن المرزبان (309 هـ) إلى الحماسة المحدثة لابن فارس (379 هـ) إلى الحماسة العسكرية لأبي هلال العسكري (395 هـ) إلى حماسة الظرفاء للزوزني (431 هـ) إلى حماسة ابن الشجري (542 هـ) إلى حماسة الشاطبي [في الأندلس] (ت 547 هـ) وليس انتهاءً بالحماسة المغربية للبياليسي الأندلسي (653 هـ) [في الأندلس كذلك] ... وإذا استطعنا أن نشير هنا إلى عدد من الحماسات المشهورة فان إشارتنا إلى شروحها سيكون من نافلة العمل ، وبخاصة إذا علمنا أن فؤاد سزكين استطاع إحصاء 24 شرحاً

(1) ينظر : تاريخ التراث العربي ، مجلد 2/ج88/1 .

(2) ينظر : مصادر الدراسات الأدبية واللغوية ، ص : 61 .

(3) ينظر : مختارات أشعار العرب ، ابن الشجري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، 1975 ، مقدمة المحقق .

لحماسة أبي تمام وحدها[1]، ولنا أن نتصور بعد ذلك عدد بقية الشروح ، الذي سيكون –حتما– كثيراً ، حتى وإن أخذنا بعين الاعتبار أن حماسة أبي تمام أكثر الحماسات شهرة وحظوة لدى الشراح و الدارسين .

إن الحماسات تمثل تطوراً في الاختيارات منهجاً وفناً ، فضلاً عن تطور دورها في النقد الأدبي ، وقد وضع أبو تمام أولى الأسس المتطورة للاختيارات وهو تركيز الاختيار في دوائر أصغر من دائرة الشعر بعمومه ، وأقصد بذلك الموضوعات والأغراض التي فصّلها أبو تمام في دوائر وشرع في الاختيار منها ، وهناك أمر آخر قام به أبو تمام لا يقل أهمية عن الأول وهو قيامه بالاختيار من أجزاء القصيدة ، والمقصود بذلك أن أبا تمام كان يختار من القصيدة أجودها مما يدخل في دائرة اختياره من الموضوع الذي حدده ، وبهذا يصبح الحفر في دائرة أضيق ، ويكون ما يصل إليه الناقد والدارس على السواء ، أنضج وأوضح

وفي موازاة قفزة الحماسات وانتشارها كان هناك ميدان آخر للاختيارات يثب الوثبة ذاتها ويسير في اتجاه غير بعيد عن اتجاه الحماسات ، وهو اختيار أفضل الشعراء أو ما يعرف بطبقات الشعراء[2]، فالحماسات كانت تؤشر على أفضل الشعر ، أما الطبقات فتؤشر على أفضل الشعراء ، ويعدّ ابن سلاّم (232 هـ) ، معاصر أبي تمام ، صاحب أول كتاب في هذا الميدان ... أراد ابن سلام اختيار أفضل شعراء الجاهلية وأفضل شعراء الإسلام وجعلهم في طبقات وفق أسس ومعايير حددها مسبقاً ... وتابع هذا النهج دارسون آخرون . وإن اختلفوا معه في تفاصيل كثيرة[3]، يمكن أن نذكر منهم – مما وصل إلينا ومما لم يصل – طبقات الشعراء لأبي حسان الزيادي (243 هـ) وطبقات الشعراء لدعبل الخزاعي (246)هـ ، والشعر والشعراء ابن قتيبة الدينوري (276 هـ) وليس آخرها طبقات الشعراء لابن المعتز (296 هـ)

وبعد هذا المرور السريع على درب الاختيارات نرى بوضوح المدى الذي وصل إليه هذا النمط من النقد والتوثيق ... ويجدر بنا الإشارة إلى أن هناك توجهات عديدة للاختيارات لم يكن لنا كلمة فيها لأننا لم نقف على نماذج من هذه الكتب ، من ذلك ما كان من الاختيار في معاني الشعر العربي ، ومن الاختيار من مناقب العرب ومثالبها وأبطالها وغير ذلك[4]

---

(1) ينظر: ديوان الحماسة ، أبو تمام الطائي ، تحقيق : عبد المنعم أحمد صالح ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد، 1987 ، ص : 6 . وينظر : تاريخ التراث العربي ، مجلد2/ج1/108 .

(2) ينظر: دراسة في مصادر الأدب، الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط4/ 1977 ، ص : 96 .

(3) ينظر:النقد عند اللغويين في القرن الثاني، سنية أحمد محمد، دار الرسالة، بغداد، 1977 ، ص : 148.

(4) ينظر : م . ن : مجلد2/ج1/91 ، وينظر : المصادر العربية والمعربة ، محمد ماهر حمادة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1980 ، ص : 248 .

التنامي والفاعلية في الدور :

تقوم كتب الاختيارات على مبدأ الاختيار ، وهو مبدأ لم نكن نلمح له وجوداً في العصر الجاهلي ولا في عصر صدر الإسلام ، بل يمكننا – بشيء من الاطمئنان – توسيع دائرة الزمن فنياً وتاريخياً ليشمل عصر الرواية ، فطوال هذا العصر لم يكن هناك من اختيارات تبدو حاضرة في دائرة النقد الأدبي بوضوح ، ويكفينا الإشارة هنا إلى عدد من الروايات التي كانت تشير إلى طلب أحد الخلفاء أو الأمراء من شخص معروف باطلاعه على أدب العرب أن يُنشده شيئاً من الشعر ، فيقوم الأخير باختيار شيء من الشعر يناسب المقام وينشره بين يدي طالب الإنشاد . إن هذه الحالات على تعددها تقف بحياء على حافة النقد الأدبي ، ففي هذا النقد – إن وسعته دائرة النقد – من البساطة ما يجعله فطرياً ، ومن الاحتراس ما يجعله قريباً من مجاملة (المقام) ، فضلاً عن غياب التعليل ودقة الاختيار وفنيته .

وأول اختيار مُوثّقٍ غير موثوق هو لمعلقات الشعر الجاهلي. وهذا الاختيار جاء بعد أن دارت عجلة التدوين في عصر التدوين حتى بدت ملامح طريقها ، وجمعت في حناياها من الشعر الجاهلي والإسلامي ما هو موثوق فيه ومشكوك ، بل ومضت في تمييز أصيلها من الموضوع .

وهذا الاختيار (المعلقات) لا تتضح لنا مسوغاته بسبب الضبابية التي اكتنفت هذا العمل ... أما الدافع الحقيقي فغير موجود تصريحاً ولا تلميحاً ... وإذا مضينا في بقية الاختيارات فإننا نعثر في بعضها على مناسبة التأليف أو الاختيار وليس على دافعه ، كما حصل مع المفضل الضبي في إحدى الروايات من أنه قام بنشر قصائد كان قد اختارها إبراهيم بن عبد الله وعلم عليها بعد أن حوصر في بيت المفضل ، وقريباً من هذا الأمر حصل مع أبي تمام حينما حاصره الثلج في إحدى مدن خراسان فجلس مع كتب مُضيفهِ فاختار قصائد ومقطوعات نشرت بعد ذلك وعرفت بحماسة أبي تمام . وفي هذا الأمر ما يبين المناسبة التي دفعت كلاً من المفضل الضبي وأبي تمام للشروع في عملهما لا الدافع من وراء العمل ...

وباستثناء الغرض التأديبي الموجّه إلى المهدي (ابن الخليفة المنصور) الذي دفع بالمفضل الضبي إلى اختيار مفضلياته ، والذي يمكن أن نعده حافزاً منطقياً للاختيار ، باستثناء هذا الأمر ، فإننا لا نكاد نعثر على دافع تقني للاختيار لدى المؤلفين الآخرين ... وغياب وضوح الدافع يدعونا إلى الإدعاء بأن الاختيار جهد داخلي ضمن جهد التدوين يتمم عملية التدوين ، ويتمم كذلك عملية النقد التأليفي المنهجي التي بدأت مع بدايات عصر التدوين ، فأول جهدٍ قام به العلماء العرب تجاه الشعر العربي في عصر التدوين هو تلقي كل ما يمكن تلقيه من الشعر ، مما حفظ شفاهاً وروي حتى وصل إلى عصر التدوين ، ثم تدوينه وتسجيله على شكل

دواوين متعددة الأنماط ، وعلى شكل مصنفات مختلفة الأنماط كذلك ، تحتوي على أشعار تسجلها وتخدمها ... في خضم هذه العملية تكونت لدى العرب مؤلفات كثيرة فيها كمٌ كبير من الشعر العربي ، فجاءت كتب الاختيارات بوصفها واحدة من أنماط التدوين ، ولكنه التدوين المخدوم نقدياً ، المحمل بذوق صاحب الاختيارات وحساباته النقدية ، الأمر الذي يجعل من هذه المختارات تلخيص لمظاهر الجمال في الشعر العربي ، إن النقد العربي – والنقد التأليفي بصورة خاصة – كان في صميم عملية التدوين ، بل هو القلب النابض لعملية التدوين وموجهها الأمين ، إن نحن حددنا الجانب الأدبي من عملية التدوين ... ومن هنا فان الاختيارات بوصفها أحد مناحي النقد الأدبي عند العرب كان من المنطقي أن تكون لها فاعلية في الحركة النقدية بخاصة ، وفي حركة التدوين بعامة .

ولإبراز فاعلية أساس هذا الكلام لابد لنا من أن نحاور بعض الأمور التي سنركز الكلام عليها فيما يأتي من حديث ...

إن جهد اختيار المعلقات بدا بسيطاً إذا ما قورن بما تلاه من جهد في الاختيار ، لكنه بالرغم من هذا أحدث حركة في هدأة بداية عصر التدوين ، فنرى تسمياتها متعددة بين (المذهبات والسموط والسبع الطوال والمشهورات وغير ذلك) ، وقد تنوع تعليل هذه الأسماء مما يشير إشارة بسيطة إلى اهتمام النقاد بهذه المختارات ، أما الإشارة الأقوى فكانت في اختلاف الدارسين حول أصحاب هذه المعلقات وحول عددهم . ويزيد في دلالة تأثير المعلقات في انتشارها في الأوساط الأدبية إقبال الأدباء على شرحها وتفسيرها[1]مما يعطي انطباعاً بأن الاختيار لاقى صدى طيباً لدى النقاد وعلماء اللغة .

وفي أفق آخر أكسبت المعلقات أصحابها حظاً من الشهرة والذيوع مما لم يتوافر لغيرهم من الشعراء الذين لم يدخلوا دائرة الاختيار في المعلقات.

وقد أضحت المعلقات بعد زمن بسيط في أعراف النقاد والشعراء أفضل الشعر الجاهلي مما جعلها بمثابة الأمثلة التي يقاس عليها جيد الشعر من رديئه ، بل حتى إن الشعراء أخذوا يتطلعون إلى المعلقات ويضعونها نصب أعينهم حينما يقومون بنظم الشعر .

ولا نعدم أن نرى الأمر ذاته مع بقية الاختيارات التي تلت المعلقات ، فكلّما ظهرت مجموعة مختارة رأينا لها صدى واسعاً في الأوساط الأدبية ، ورأينا لها حركة أدبية نقدية مصاحبة لها مما يؤكد دور الاختيارات في الدائرة النقدية والأدبية ...

وسرعان ما دخلت الاختيارات بلاط الخلفاء في مؤشر واضح لنجاعة هذا المنهج في ميادين عديدة ، فالمنصور يطلب من المفضل اختيار أفضل الشعر العربي لتأديبه ابنه ، وأفضل

(1) ينظر : تاريخ التراث العربي ، مجلد2 /ج78/1 .

ما يؤدب ابن الخليفة في ميدان الأدب قصائد يختارها واحد من أفضل علماء العربية (المفضل الضبي) من عيون الشعر العربي مما يصلح أن يؤدب به ابن الخليفة لأعظم دولة آنذاك ، أما أن يحيط المتأدب بالشعر العربي كله ففي هذا خطر كبير ، ففضلاً عن ضياع جهد ثمنه باهظ في هذه المرحلة ، ففي الشعر العربي ما يصلح الذوق ويفسده ، وفيه الغث والسمين ، وفيه من مكارم الأخلاق ومن مساؤها ، لذلك كان الاختيار القائم على الحصافة والذوق السليم هو أفضل السبل ، وهكذا تكون الاختيارات قد دخلت ميدان التربية والتعليم من أبوابها الشريفة العليا .

وفي مظهر آخر تشير المحاورات غير مباشرة الجارية بين الاختيارات والأوساط الأدبية إلى مدى فاعلية الاختيارات ، وكذلك إلى مدى حاجة الأوسط الأدبية لمثل هذه الاختيارات ، بعد تمحيص وتعديل وتطوير ، فبعد ذيوع اختيارات معينة نرى من الأوساط الأدبية إما قبولاً مرحباً (في إشارة إلى إصابتها مكمن الهدف) ، أو نرى منها تصريحات نقدية أو إشارات تطالب بتعديل أو تصحيح وليس إلغاءً ومحواً ... فالمفضليات لاقت قبولاً وترحيباً واسعاً ، والأمر ذاته حصل مع حماسة أبي تمام ، لكن الأصمعيات تعرضت إلى نقد واضح (لأنها اختصرت الرواية وابتعدت عن الغريب) ، ومن قبلها المعلقات التي رأينا عدداً من العلماء من يزيد بعدد المعلقات ، أو يغير من بعض أصحابها ، وفي ذلك إشارة إلى حاجة هذا الاختيار إلى التعديل ، وإذا كانت حماسة أبي تمام قد لاقت قبولاً ورواجاً فان حماسة تلميذه البحتري لم تلق الحظ نفسه والقبول .

وقد كان للاختيارات حوار من نوع آخر وهو حوارها مع ذاتها، فمن ينظر إلى الاختيارات وإلى تطورها يرى تطوراً نحو الارتقاء والتنوع والتركيز والبسط والإضافة. فالمعلقات اختيار لسبع قصائد ، والمفضليات 128 قصيدة ، وإذا ما وصلنا إلى حماسة أبي تمام سنراها تضم 881 قصيدة ومقطوعة .

ان التوسع الكمي في الاختيار ليس مقصوداً في ذاته ، بل انه لا يمثل إلا مظهراً بسيطاً من مظاهر تطورها وتفاعلها ، أما المظهر الآخر المركب فيمكننا أن نلمحه في أمور متعددة ، منها :

هذا التطور المتوالي لمنهج الاختيار ، فهو بسيط انطباعي في المعلقات ، يزداد تعقيداً عند المفضل الضبي حينما يهتم بالقصائد القديمة ، وحينما يلزم نفسه بالعناية في رواية القصيدة كاملة على وجهها الصحيح مع ذكر سندها .

وعند أبي زيد القرشي في الجمهرة نرى مقدمة نقدية واسعة تضاف إلى اختياراته يحاور فيها أهل الشعر قبل أن يطلعهم على اختياره.

وأبو تمام في حماسته طّور الاختيار وأدخل عليها التصنيف، فصنف أبواب حماسته على موضوعات فكان صنيعه فاتحة لمن جاء بعده.

وابن سّلام نقل الاختيار من الشعر إلى الشاعر فاختار الشعراء ولم يختر الشعر ، وجعلهم في طبقات وليس في طبقة واحدة ، وحدّد أساس المفاضلة (وهو الجودة والكم وتنوع الأغراض) ، بل وفعل ما فعله القرشي بأن خصص القسم الأول من كتابه وهو المقدمة ليكون بمثابة عرض لآرائه النقدية ... وهكذا نرى أن الاختيارات تطورت مناهجها ومظاهرها مما يدل على فاعليتها .

ومن ملامح المظهر المركب ان الاختيارات كانت تكمل إحداها الأخرى في دائرة تكامل لتكون بمجملها مظهراً نقدياً من مظاهر عصر التدوين ، وليكون بعد ذلك – مع المظاهر الأخرى في عصر التدوين – لبنات الثقافة العربية .

إن القصور الذي حملته المعلقات في غياب الدقة المتناهية لتسمية أصحابها ، واختلاف بعض رواياتها ، نرى أثره قد انمحى عند المفضل الضبي ، فأصحاب اختياراته مثبتون – على كثرتهم – بشكل رصين ، وسند الرواية واضح ، والقصائد مدونة دون إرباك .

وإذا كان المفضل الضبي قد أورد في اختياراته القصائد الكاملة التي تحوي على الغريب فان الأصمعي قد جاء باختياراته لتتكامل مع المفضليات[1]، فلم يهتم بسند الرواية ، واختار من القصائد ما لا يكثر فيها الغريب ، واختصر الكثير من الروايات مما رآه يرهل من الاختيارات .

والقرشي فعل شيئاً آخر ليتناغم مع من سبق ، فقد رتب اختياراته سبع مراتب في كل مرتبة سبع منظومات هي : المعلقات ، المجمهرات ، المنتقيات ، المذهبات ، المراثي ، المشوبات ، المُحلمات . وبهذا وغيره أصبحت جمهرة أشعار العرب (خير متمم لمجموعتي المفضل والأصمعي) ، فهي مثلهما تضم نماذج جيدة وكاملة من شعر الجاهلية وصدر الإسلام ، كما أن فيها قصائد لا يعثر على بعضها في الدواوين والمجموعات التي صنفت قبلها[2].

وقد تابع أبو تمام ومن تبعه من أصحاب الحماسات (وبخاصة تلميذه البحتري) عمل السابقين فاختار الأجود من دوائر الموضوعات التي دار عليها الشعر برأيه وهي : الحماسة والمراثي والأدب والنسيب والهجاء والأضياف والمديح والصفات والسير والنعاس والملح ومذمة النساء ، ووضع أبو تمام لنفسه خطاً زمنياً لا يتجاوزه في اختياراته فهو لا يختار إلا من الشعر القديم ... أما البحتري فقد جزأ دوائر أستاذه أولاً فحلل الموضوعات إلى معانيها الجزئية فاختار من أجود ما قيل في المعاني وليس في الموضوعات فأضحت أبواب حماسته 174 باباً ، قد قام ثانياً بتوسيع دائرة اختياره فشملت المحدثين المعاصرين له فضلاً عن القدماء .

---

(1) ينظر : الأصمعيات ، عبد الملك بن قريب الأصمعي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، مصر ، ط5 ، 1979 ، ص : 5 .

(2) مصادر الدراسات الأدبية واللغوية ، ص : 62 .

أما ابن الشجري فقد وقف في حماسته موقفاً وسطاً بين الحماستين فقسم أبواب حماسته إلى تسعة أبواب رئيسية هي : باب الشدّة والحماسة ، باب اللوم والعتاب ، باب المراثي ، باب المديح ، باب الهجاء ، باب الأدب ، باب النسيب ، باب الصفات ، باب الملح ... وقام بعد ذلك بتفريع بعض الأبواب إلى فروع أو فصول كما حدث مع باب النسيب الذي قسمه إلى خمسة فصول وباب الصفات الذي قسمه إلى خمسة عشر فصلاً ... وقد بلغ عدد الشعراء الذين ذكرهم في حماسته 365 شاعراً عدا المجهولين والذين لم يذكر أسماؤهم ، فيما كان نصيب الاختيار عنده من الشعراء المحدثين والمعاصرين له يفوق حماسة البحتري .

وفي موازاة هذا كان ابن سلام يقوم بصرف الاختيار إلى جهة أخرى كانت غائبة ، حيث حوّل الاختيار من الإبداع إلى المبدع في حركة تسهم في تكاملية الدور النقدي للاختيار ... وسرعان ما أصبحت كتب الطبقات تكمل إحداها الأخرى ، فابن سلاّم الذي جعل طبقاته محصورة في الشعراء الجاهليين والإسلاميين نرى ابن المعتز يجعل طبقاته محصورة في الشعراء المحدثين العباسيين[1]، ولا يكتفي بذلك بل يذكر نتفاً مهمة من أخبار شعرائه حينما يمر على ذكرهم ربما في محاولة منه لاستدراك ما قد فات الرائد ابن سلام .

وهكذا نرى جهود الاختيار يكمل بعضها بعضاً ويتابع بعضها بعضاً في حركة متناغمة ، متساوقة في الوقت ذاته ، مع الجهود النقدية الأخرى ، ولا عجب ، فأصحاب الاختيارات هم ذاتهم أصحاب التوجهات النقدية والأدبية الأخرى فالعلماء (كالضبي والأصمعي) والنقاد (كابن سلام والقرشي) والشعراء (كأبي تمام والبحتري) هم الذين أسهموا في تدوين الأدب العربي ورعايته وحفظه ، وهم الذين أسسوا المؤسسة النقدية العربية القديمة . وأخيراً لابد لنا من نحفظ للاختيارات فضلاً آخر وهو أنها حفظت لنا الذوق الأدبي الذي كان سائداً في ذلك العصر، فمن خلال كتب الاختيارات يمكننا أن نرسم ملامح الذوق الأدبي لعصر التدوين وما تبعه من تطور[2]

قبل الختام:

يظهر لنا من خلال الدراسة أن الاختيار كان حاضرا وبقوة فاعلة في عصر التدوين بصورة خاصة وفي حركة النقد الأدبي بصورة عامة , وان الاختيار كان قد انطلق انطلاقة طبيعية وضرورية ليتناسب مع مرحلة التدوين , ثم تطور بشكل طبيعي وضروري كذلك , إلى أن

(1) ينظر : طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ط ، د.ت ، ص : 5 .

(2) ينظر : النظرية النقدية عند العرب ، هند حسين طه ، دار الرشيد ، بغداد ، 1981، ص : 229.

أصبح أحد علامات النقد العربي , واحتل مساحة واسعة وفاعلة في الجهد النقدي العربي المؤلف وغير المؤلف .

وفي الختام

نحمد الله تعالى على نعمائه, ونستغفره من كل تقصير وذنب.

مصادر البحث

- الأصمعيات ، عبد الملك بن قريب الأصمعي، تحقيق : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف ، مصر ، ط5 ، 1979 .
- تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة : عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2.
- تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، ترجمة : محمود فهمي حجازي ، نشرته : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، 1983 .
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ط2 ، 1978.
- دراسة في مصادر الأدب ، الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط4 / 1977.
- ديوان الحماسة ، أبو تمام الطائي ، تحقيق : عبد المنعم أحمد صالح ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1987 .
- ديوان المفضليات ، المفضل الضبي ، بشرح أبي محمد الأنباري ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، 1920.
- طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ط ، د.ت .
- الفهرست ، محمد بن إسحق النديم ، دار المعرفة ، بيروت ، 1978.
- مختارات أشعار العرب ، ابن الشجري ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ،1975.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ،جلال الدين السيوطي، تحقيق : فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية ،بيروت، ط1.
- مصادر الدراسات الأدبية واللغوية ، داود إبراهيم غطاشة وعبد القادر أبو شريفة ، دار القدس ، عمان1989.
- المصادر العربية والمعربة ، محمد ماهر حمادة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط2 ، 1980 .
- المكتبة ، سامي مكي العاني وعبد الوهاب العدواني ، نشر وزارة التعليم العالي ، بغداد ، 1979 .
- المكونات الأولى للثقافة العربية، عز الدين إسماعيل ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ط2 ، 1986.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء،الأنباري،تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ط1 ، 1967.
- النظرية النقدية عند العرب ، هند حسين طه ، دار الرشيد ، بغداد ، 1981.
- النقد عند اللغويين في القرن الثاني ، سنية أحمد محمد ، دار الرسالة ، بغداد 1977 .